﴿ إنْ عندكُم مِن سُلْطَانٍ بِهَذَا .. (٦٨) ﴾ [يونس]

أى: ليس عندكم حُجَّة تدل على أن الله تعالى اتخذ ولداً.

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ أتقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يونس]

أى: أنكم لا تملكون إعلاماً من الله تعالى بذلك ، فلا إعلام عن الله إلا من الله ، وليس لأحد أن يُعْلِم عن ربه ، فهو سبحانه من يُعْلِم عن نفسه.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) ﴾

والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن الإيمان وثمرته ونهايته يأتى بالفَلاَح كنتيجة لذلك الإيمان ، فهو سبحانه القائل:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا [1] (٩) ﴾ [الشمس]

وهو سبحانه القائل:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) ﴾ [المؤمنون]

ويقول أيضاً:

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

وكلها من مادة «الفلاح» وهى مأخوذة من الأمر الحسى المتصل بحياة الكائن الحى ، فمقومات وجود الكائن الحى: نَفَس ، وماء ، وطعام ،

---

(١) زكاها: طهرها وبرأها من أقذار البدن والنفس.

والتنفس يأتى من الهواء الذى يحيط بالأرض ، والماء ينزل من السماء أو يُستنبط مما تسرب فى باطن الأرض. والطعام يأتى من الأرض ، وكل ما أصله من الأرض يُستخرج بالفلاحة.

لذلك نقول: إن الفلاَحة هى السبب الاستبقائى للحياة ، فكما يُفْلِح الإنسان الأرض ، ويشَقها ويبذر فيها البذور ، ثم يرويها ، ثم تنضج وتخرج الثمرة ، ويقال: أفلح ، أى: أنتجت زراعته نتاجاً طيباً.

وشاء الحق سبحانه أن يسمِّى الحصيلة الإيمانية الطيبة بالفلاح.

وبيَّن لنا رسول الله ﷺ أن الدنيا مزرعة الآخرة ، فإن كنت تريد ثمرة فابذل الجهد.

وإياك والظن أن الدين حينما يأخذ منك شيئاً فى الدنيا أنه يُنْقِص ما عندك ، لا ، بل هو يُنمِّى لك ما عندك[1].

والمثل الذى أضربه دائماً - ولله المثل الأعلى - نجد الفلاَّح حين يزرع فداناً بالقمح ، فهو يأخذ من مخزنه إردباً ؛ ليستخدمه كبذور فى الأرض ، ولو كانت امرأته حمقاء لا تعرف أصول الزراعة ستقول له: «أنت أخذت من القمح ، وكيف تترك عيالك وأنت تنقصهم من قوتهم ؟ »

هذه المرأة لا تعلم أنه أخذ إردبَّ القمح الـمُخَزَّن ؛ ليعود به بعد الحصاد عشرة أو خمسة عشر إردبّاً من القمح.

كذلك مطلوب الله سبحانه فى الدنيا قد يبدو وكأنه ينقصك أشياء ، لكنه يعطيك ثمار الآخرة ويزيدها.

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿ما عندكُمْ ينفدُ وما عند الله باقٍ .. (٩٦)﴾ [النحل] وقوله: ﴿وما تُنفقوا من شيءٍ في سبيل الله يُوفَّ إليكُمْ ..(٦٠)﴾ [الأنفال] وقوله: ﴿من جاء بالحسنة فلهُ عشرُ أمثالها ..(١٦٠)﴾ [الأنعام] وقوله: ﴿إن تُقرضُوا الله قرْضاً حسناً يُضاعفهُ لكُمْ ويغفرْ لكُمْ ..(١٧)﴾ [التغابن]

إذن : فالفلاح مادة مأخوذة من فلح الأرض وشقها وزرعها لتأخذ الثمرة .

وكما أنك تأخذ حظك من الثمار على قدر حظك من التعب ومن العمل ، فذلك أمر الآخرة وأمر الدنيا .

ومثال ذلك : الفلاح الذى يحرث الأرض ، ويحمل للأرض السماد على المطية [1] ، ثم يستيقظ مبكراً فى مواعيد الرى ، تجد هذا الفلاح فى حالة من الانشراح والفرح فى يوم الحصاد ، وأمره يختلف عمن يهمل الأرض ويقضى الوقت على المقهى ، ويسهر الليل أمام التليفزيون ، ويأتى يوم الحصاد ليحزن على محصوله الذى لم يحسن زراعته .

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ [2] (٦٩) ﴾ [يونس]

أى : هؤلاء الذين يقولون عن الله تعالى أو فى الله تعالى بغير علم من الله ، هم الذين لا يفلحون .

وأوضحت من قبل أن كل ما يتعلق بالله تعالى لا يُعْلَم عنه إلا عن طريق الله . لكن ما الذى يحملهم على الافتراء؟

نعم ، إن كل حركة فى الحياة لا بد أن يكون الدافع إليها نفعاً ، وتختلف النظرة إلى النفع وما يترتب عليه ، فالطالب الكسول المتسكع فى الشوارع ، الرافض للتعلم ، نجده راسباً غير موفق فى مستقبله ، أما التلميذ الحريص على علومه ، فهو من يحصل على المكانة اللائقة به فى المجتمع ، والتلميذ الأول كان محدود الأفق ولم ير امتداد النفع وضخامته ، بل قصر النفع على لذة عاجلة مُضحِّياً بخير آجل .

---

(١) المطية : الدابة ، وهى الناقة التى يُركَب مطاها أى : ظهرها . وجمعها : مطايا . [لسان العرب : مادة (م ط ى)] .

(٢) يفترون الكذب : يكذبون ، أو يقولون بغير علم . لا يفلحون : لا يفوزون ولا ينتصرون . قال تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) ﴾ [طه] .

والذى جعل هؤلاء يفترون على الله الكذب هو انهيار الذات ، فكل ذات لها وجود ولها مكانة ، فإذا ما انهارت المكانة ، أحس الإنسان أنه بلا قيمة فى مجتمعه .

والمثل الذى ضربته من قبل بحَلاَّق الصحة فى القرية ، وكان يعالج الجميع ، ثم تَخرَّجَ أحد شباب القرية فى كلية الطب وافتتح بها عيادة ، فإن كان حلاق الصحة عاقلاً ، فهو يذهب إلى الطبيب ليعمل فى عيادته ممرضاً ، أو (تمرجياً) ، أما إن أخذته العزة بالإثم ، فهو يعاند ويكابر ، ولكنه لن يقدر على دفع عِلْم الطبيب .

وكذلك عصابة الكفر ورؤساء الضلال حينما يُفاجَأون بمَقْدم رسول من الله ، فهم يظنون أنه سوف يأخذ السيادة [1] لنفسه ، رغم أن أىَ رسول من رسل الله تعالى - عليه السلام - إنما يعطى السيادة لصاحبها ، ألا وهو الحق الأعلى سبحانه .

وحين يأخذ منهم السيادة التى كانت تضمن لهم المكانة والوجاهة والشأن والعظمة ، فهم يصابون بالانهيار العصبى ، ويحاولون مقاومة الرسول دفاعاً عن السلطة الزمنية .

ومثال ذلك : هو مَقْدمُ النبى ﷺ إلى المدينة ، وكان البعض يعمل على تنصيب عبد الله بن أبىّ ليكون مَلكاً [2] ؛ ولذلك قاوم الرجل الإسلام ،

(١) وهذا مخالف لمنطق الرسول ﷺ ومفهوم الدعوة ، حيث عرض عليه الكفار المال والملك والسلطان والجاه ، فاختار رب الكل ، وقال قولته التى سجلها الزمن وحفظتها العقول الواعية : « والله ولو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته » أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٦٦) .

(٢) أورد ابن إسحاق فى السيرة أن قوم عبد الله بن أبى كانوا « قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملّكوه عليهم ، فجاءهم الله برسوله وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مُصراً على نفاق وضغن » سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٦) .

وحين لم يستطع آمن نفاقاً ، وظل على عدائه للإسلام ، رغم أنه لو أحسن الإسلام واقترب من رسول الله ﷺ لنال أضعاف ما كان سيأخذه لو صار ملكاً .

وهكذا قادة الضلال وأئمة الكفر ، هم مشفقون على أنفسهم وخائفون على السلطة الزمنية ؛ لأن الرسول حينما يجيء إنما يُسوِّى بين الناس ؛ لذلك يقفون ضد الدعوة حفاظاً على السلطة الزمنية .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن سبب افترائهم الكذب :

﴿ مَتَٰعٌ(1) فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

ويعزُّ - إذن - على قادة الكفر وأئمة الضلال أن يسلبهم الرياسة والسيادة داعٍ جديد إلى الله سبحانه وتعالى ، ويخافون أن يأخذ الداعى الجديد لله الأمر منهم جميعاً ، لا إلى ذاته ، ولكن إلى مراد ربه .

ولو كان الداعى إلى الله تعالى يأخذ السلطة الزمنية لذاته ؛ لقلنا : ذاتٌ أمام ذات ، ولكنه ﷺ أوضح أنه يعود - حتى فيما يخصه - إلى الله سبحانه وتعالى .

ويكشف لنا الحق سبحانه الكسب القليل الذى يدافعون عنه أنه :

---

(١) المتاع : التمتع ، وهو كل ما ينتفع به ويرغب فى اقتنائه ، كالطعام ، وأثاث البيت ، والسلعة ، والأداة ، والمال [المعجم الوسيط] والمراد أن الله سبحانه وتعالى يترك الكفار يتمتعون بمتاع الدنيا الزائل - لأن الدنيا كلها لا تساوى عند الله سبحانه جناح بعوضة - ولكنه سيعاقبهم على كفرهم بالعذاب الشديد فى الآخرة ويحرمهم من نعيم الجنة . ويقصد بالمتاع أيضاً الزوجة الصالحة مصداقاً لقول رسول الله ﷺ « الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » .
أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الرضاع - باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة ، حديث (٥٩) عن عبد الله بن عمرو ، وعند أبى نعيم فى حلية الأولياء (٣/ ٣١٠) زيادة « إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته » .

﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ..﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ لأن كُـلاً منهم يحب أن يقنع نفسه ، بحُمْق تقدير المنفعة ، وكلمة «الدنيا» لا بد أن منها حقيقة الشيء المنسوبة إليه.

والأسماء - كما تعلم - هى سمات مسميات ، فحين تقول: إن فلاناً طويل ، فأنت تعطيه سمة الطول.

وحين تقول: «دنيا» فهى من «الدُّنُوِّ» أو « الدناءة» .

وإن اعتبرت الدنو هو طريق موصل إلى القمة ، فهذا أمر مقبول ؛ لأن الدرجة الأولى فى الوصول إلى الأعلى هى الدنو ، وتلتزم بمنهج الله تعالى فتصعد عُلواً وارتفاعاً إلى الآخرة.

إذن: فمن يصف الدنيا بالدناءة على إطلاقها نقول له: لا ، بل هى دنيا بشرط أن تأخذها طريقاً إلى الأعلى ، ولكن من لا يتخذها كذلك فهو من يجعل مكانته هى الدنيئة ، أما من يتخذها طريقاً إلى العلو فهو الذى أفلح باتِّباع منهج الله تعالى.

إذن: فالدنيا ليست من الدناءة ؛ لأن الدين ليس موضوعه الآخرة ، بل موضوعه هو الدنيا ، ومنهج الدين يلزمك بـ «افعل» و «لا تفعل» فى الدنيا ، والآخرة هى دار الجزاء ، والجزاء على الشيء ليس عين موضوعه ، وأنت تستطيع أن تجعل الدنيا مفيدة لك إنْ جعلتها مزرعة للآخرة.

وإياك أن تعمل على أساس أن الدنيا [1] عمرها ملايين السنين ؛ لأنه لا يعنيك كعائش فى الدنيا إن طال عمرها أم قَصُرَ ، بل يعنيك فى الدنيا مقدار مُكْثك فيها ، وعمرك فيها مظنون ، بل وزمن الدنيا كله

---

(١) وقد وصف لنا رب العزة سبحانه الدنيا فقال : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ..﴿٧٧﴾ ﴾ [النساء] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس]

مظنون ، وهناك من يموت وعمره ستة أشهر ، وهناك من يموت وعمره مائة سنة ، وكلٌّ يتمتع بقدر ما يعيش ، ثم يرجع إلى الله سبحانه وتعالى .

وهؤلاء الذين ضَلُّوا وقالوا على الله سبحانه افتراء ، هؤلاء لن يفلتوا من الله ؛ لأن مرجعهم إليه سبحانه ككل خَلْقه ، وهؤلاء المُضلُّون لم يلتفتوا إلى عاقبة الأمر ، ولا إلى من بيده عاقبة الأمر ، ولم يرتدعوا .

ولكن من نظر إلى عاقبة الأمر وأحسن في الدنيا فمرجعه إلى حسن الثواب والجنة ، ومن لم ينظر إلى عاقبة الأمر وافترى على الله - سبحانه وتعالى - الكذب فالمآب والمآل [1] إلى العذاب مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾ [يونس]

ودرجة العذاب تختلف باختلاف المعذِّب ، فإن كان المعذِّب ضعيفاً ، فتعذيبه يكون ضعيفاً ، وان كان المعذِّب متوسط القوة ؛ فتعذيبه يكون متوسطاً ، أما إن كان المعذِّب هو قوة القوى فلا بد أن يكون عذابه شديداً ، وهو سبحانه الحق القائل :

﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [2] (١٠٢) ﴾ [هود]

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن مبدأ تنزيه الألوهية عن اتخاذ الولد ، فهو سبحانه الغنيُّ الذى له ما في السموات والأرض ، وبيَّن لنا سبحانه أننا يجب أن نأخذ المنهج من مصدر واحد وهو الرسل المبلِّغون عن الله تعالى ، شاء الحق سبحانه أن يكلمنا عن موكب الرسالات ؛ لأن الكلام حين يكون كلاماً نظرياً ليس له واقع يسنده ، فقد تنسحب النظرية عليه .

أما إن كان للكلام واقع في الكون يؤيد الكلام النظرى ، فهذا دليل على صحة الكلام النظرى ؛ ولذلك فنحن حين نحب أن نضخِّم مسألة من

---

(١) المآب والمآل : المرجع والمصير .

(٢) أليم : صيغة مبالغة من الألم ، وشديد : صيغة مبالغة من الشدة ، أى : شديد الألم .

المسائل فى داء اجتماعى ، نحاول أن نصنع منه رواية ، أى : أمراً لم يحدث حقيقة ، ولكننا نتخيل أنه حقيقة ؛ لنبيّن الأمر النظرى فى واقع متخيَّل.

ويقص علينا الحق سبحانه فى القرآن قصصاً من الموكب الرسالى ؛ ليبيِّن للكفار : أنكم لن تستطيعوا الوقوف أمام هذه الدعوة ، وأمامكم سجل التاريخ ، وأحداث الرسل مع أممهم ؛ المؤيدين بالمؤمنين ؛ والكفار المعاندين والمعارضين ، فإن كان قوم من السابقين قد انتصروا على رسولهم ، فللكفار الحق فى أن يكون لهم أمل فى الانتصار على رسول الله ﷺ [1].

ولا بد أن يكون هذا الكلام موجهاً إلى أناس لهم علم ببعض أحداث الموكب الرسالى. ولكن قد يكون علم هذا قد بهت ؛ لأن الزمان قد طال عليه.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ [2] ﴿٧١﴾ ﴾

---

(١) وقد جاءت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تحث الكافرين وغيرهم على النظر فى عاقبة المكذبين والمجرمين ، نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام]. وقوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النمل].

(٢) كبر : عظم وشق عليكم. مقامى : إقامتى بينكم. تذكيرى بآيات الله : دعوتى إياكم إلى الإيمان بالله تعالى. فعزمتم على قتالى وطردى ، فبالله آمنت ، وبه وثقت ، وعليه اعتمدت وتوكلت. فأجمعوا أمركم : اعزموا على ما تعزمون عليه وادعوا شركاءكم. غمة : ملتبساً مبهماً ، أى : كونوا جميعاً يداً واحدة ضدى ، واقضوا إلىَّ : أى : امضوا إلى ما فى أنفسكم وافرغوا منه. ولا تُنظرون : لا تؤخرون ولا تمهلون. وشدة إيمان نوح - عليه السلام - بالله تعالى وثقته فى نصرته إياه هى التى دعته لأن يتحدى قومه الكافرين هذا التحدى ؛ فكان نصر الله له ، والغرق والهلاك لأعدائه بالطوفان. [مختصر تفسير الطبرى - بتصرف].

ولقائل أن يقول: ولماذا جاء الله سبحانه هنا بخبر نوح - عليه السلام - ولم يأت بخبر آدم -عليه السلام - أو إدريس - عليه السلام - وهُمَا من الرسل السابقين على نوح عليه السلام ؟

ومن هنا جاءت الشبهة في أن آدم لم يكن رسولاً ؛ لأن البعض قد ظن أن الرسول يجب أن يحمل رسالته إلى جماعة موجودة من البشر ، ولم يفطن هؤلاء البعض إلى أن الرسول إنما يُرْسَل لنفسه أولاً .

وإذا كان آدم - عليه السلام - أول الخلق فهو مُرسَل لنفسه ، ثم يبلِّغ من سوف يأتى بعده من أبنائه .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى التجربة لآدم - عليه السلام - فى الجنة ، فكان هناك أمر ، وكان هناك نهى هو ﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ..(٣٥)** ﴾

[البقرة]

وحَذَّره من الشيطان [(١)] ، ثم وقع آدم عليه السلام فى إغواء الشيطان ، وأنزله الله تعالى إلى الأرض واجتباه [(٢)] ، وتاب عليه ، ومعه تجربته ، فإن خالف أمر ربه فسوف يقع عليه العقاب ، وحذره من اتباع الشيطان حتى لا يخرج عن طاعة الله تعالى.

---

(١) الشيطان : كل عاد متمرد من الإنس والجن ، والشيطان من الجن مخلوق حيث خلق من النار ، وهو عدو للإنسان يغريه بالشر إلا من حفظه الله بإيمانه يقول الحق : ﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم (١٧) ﴾ [الحجر] أى : حفظ السماء من عبث الشياطين وقال تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً .. (٦) ﴾[فاطر] وقال : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن .. (١١٢) ﴾ [الأنعام] [القاموس القويم - بتصرف]

(٢) اجتباه: اصطفاه واختاره، ومصداقه قوله تعالى عن آدم: ﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى (١٢٢) ﴾ [طه].

إذن: فقد أعطاه الحق سبحانه المنهج ، وأمره أن يباشر مهمته فى الأرض ؛ فى نفسه أولاً ، ثم يبلغه لمن بعده.

وكما علَّمه الحق سبحانه الأسماء كلها ، علَّم آدم الأسماء لأبنائه فتكلموا: وكما نقل إليهم آدم الأسماء نقل لهم المنهج ، وقد علمه الحق سبحانه الأسماء ؛ ليعمر الدنيا ، وعلَّمه المنهج ؛ ليحسن العمل فى الدنيا ؛ ليصل إلى حسن جزاء الآخرة.

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [طه]

ويتبعها الحق سبحانه بقوله تعالى:

﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ ..﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه]

ومعنى الاجتباء : هو الاصطفاء بالرسالة لنفسه أولاً ، ثم لمن بعده بعد ذلك ، والحق سبحانه هو القائل:

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة]

والهدى: هو المنهج المنزَّل على آدم عليه السلام ، والرسالة ليست إلا بلاغ منهج وهدى من الله سبحانه للخلق.

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء]

فالسابقون لنوح - عليه السلام - هم من أبلغهم آدم عليه السلام ، والدليل هو ما جاء من خبر ابنى آدم فى قول الحق سبحانه:

﴿ واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا [1] .. (٢٧) ﴾ [المائدة]

وهما قد قدَّما القربان إلى الله تعالى.

إذن: فخبر الألوهية موجود عند ابنى آدم بدليل قول الحق سبحانه:

﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) ﴾ [المائدة]

إذن: فهم قد أقروا بوجود الله تعالى، وأيضا عرفوا النهى ؛ لأنه فى إحدى الآيتين قال:

﴿ لَئِن بَسَطتَ [2] إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) ﴾ [المائدة]

إذن: فالذين جاءوا بعد آدم - عليه السلام - عرفوا الإله الواحد، وعلموا المنهج.

إذن: فالذين يقولون: إن آدم - عليه السلام - لم يكن رسولاً، نقول لهم: افهموا عن الله جيداً، كان يجب أن تقولوا: هذه مسألة لا نفهم فيها، وكان عليهم أن يسألوا أهل الذِّكْر ليفهموا عنهم أن آدم - عليه السلام - رسول، وأن من أولاده قابيل وهابيل، وقد تكلما فى التقوى.

أما لماذا جاء الحق سبحانه هنا بالحديث عن نوح، عليه السلام، فلنا أن نعلم أن آدم عليه السلام هو الإنسان الأول، وأنه قد نقل لأولاده المنهج

(١) القربان: هو ما يتقرب به العبد إلى الله أو إلى الآلهة المزعومة، وقد كان أحد أبناء آدم صاحب غنم، فقرب أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها طيبة بها نفسه، أما الآخر فكان صاحب حرث فقرب أشر حرثه غير طيبة بها نفسه، فتقبل الله قربان صاحب الغنم الذى قدم أفضل ما عنده طيبة بها نفسه. انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢).

(٢) بسطت: مددت.

الـمُبلَّغ له ، ودلَّهم على ما ينفعهم ، ثم طال الزمن ونشأت الغفلة ، فجاء إدريس عليه السلام ، ثم تبعته الغفلة ، إلى أن جاء نوح عليه السلام.

وهنا يأتى لنا الحق سبحانه بخبر نوح - عليه السلام - فى قوله:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ .. (٧١) ﴾ [يونس]

والنبأ: هو الخبر الهام الذى يلفت الذهن ، وهو الأمر الظاهر الواضح.

والحق سبحانه يقول:

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) ﴾ [النبأ]

إذن : فالنبأ هو الخبر الهام الـمُلْفت ، وقد جاء هنا خبر نوح - عليه السلام - الذى يُبلِّغ قومه أى: يخاطبهم ، وهو قد شهد لنفسه أنه رسول يبلِّغ منهجاً.

وكلمة ﴿قَوْم﴾ لا تطلق فى اللغة إلا على الرجال [1] ، يوضح القرآن ذلك فى قول الحق سبحانه:

﴿ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ..(١١) ﴾ [الحجرات]

إذن: فالقوم هم الرجال ، والمرأة إنما يُبنى أمرها على السر ، والحركة فى الدنيا للرجل ، وقد شرحنا ذلك فى حديث الحق سبحانه لآدم - عليه السلام - عن إبليس ، فقال تعالى:

---

(١) القوم: جماعة من الرجال ليس معهم نساء ، ويستعمل لفظ القوم فيشمل الأمة كلها رجالاً ونساء ، مثل قوم نوح وقوم إبراهيم . قال ابن منظور فى اللسان (مادة قوم) : «ربما دخل النساء فيه على سبيل التبع ؛ لأن قوم كل نبى رجال ونساء».

﴿إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧)﴾
[طه]

ولأن الخطاب لآدم فقد قال الحق سبحانه: ﴿فَتَشْقَىٰ (١١٧)﴾ [طه]

ولم يقل: فتشقيا ؛ مما يدل على أن المرأة لا شأن لها بالأعمال التى خارج البيت والتى تتطلب مشقة، فالمرأة تقرُّ[1] فى البيت ؛ لتحتضن الأبناء، وتُهيِّىء السكن للرجل بما فيها من حنان وعاطفة وقرار واستقرار.

أما القيام والحركة فللرجل.

والحق سبحانه يقول:

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧)﴾ [طه]

إذن: فالكدح للرجل ومتطلبه القيام لا القعود.

ثم يقول الحق سبحانه على لسان نوح - عليه السلام:

﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي .. (٧١)﴾ [يونس]

وهنا يُحنِّن نوح قومه بإضافات التحنن، أى: جاء بالإضافة التى تُشْعر المخاطبين بأنه منهم وهم منه، وأنه لا يمكن أن يغشهم فهم أهله، مثل قول النائب الذى يخطب فى أهل دائرته الانتخابية: «أهلى وعشيرتى وناخبىّ» وكلها اسمها إضافة تحنن.

وكذلك مثل قول لقمان لابنه:

﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان]

---

(١) القر فى البيت: الاستقرار فيه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ (٣٣)﴾ [الأحزاب].

وقوله:

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ [1] فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَـٰوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ [لقمان]

وقوله:

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ .. (١٧) ﴾ [لقمان]

وهذه إضافات التحنن وفيها إيناس للسامع أن يقرب ويستجيب للحق.

﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي .. (٧١) ﴾ [يونس]

و«الكاف والباء والراء» تأتى لمعنيين:

الأول: كبر السن، وهى: كبر يكبر.

والثانى: العظمة والتعظيم، إلا أن التعظيم يأتى ليبيِّن أنه أمر صعب على النفس، مثل قول الحق سبحانه:

﴿ .. كَبُرَتْ [2] كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) ﴾ [الكهف]

أى: أن هذه الكلمة التى خرجت من أقوالهم أمر صعب وشاق، وهى قولهم:

---

(١) مثقال حبة من خردل: زنة حبة من خردل. والخردل: نبات عشبى ينبت فى الحقول وعلى حواشى الطرق، تستعمل بزوره فى الطب، ومنه بزور يتبل بها الطعام. الواحدة خردلة. ويضرب به المثل فى الصِّغر، فيقال: ما عندى خردلة من كذا. [المعجم الوسيط: مادة (خ ر د ل)].

(٢) ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. (٥) ﴾ [الكهف] أى: أن قول الكفار بأن لله - سبحانه وتعالى عما يقولون - ولداً، قول فيه خطأ كبير؛ لأن الله سبحانه منزه عن الصاحبة والأولاد، وعن الشركاء والأنداد. قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا (٩٣) ﴾ [مريم]. وقال سبحانه: ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يونس] من إثبات الولد له، والولد يقتضى المجانسة والمشابهة، والله تعالى لا يجانس شيئاً، ولا يشابه شيئاً.

﴿ ..قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾ [الكهف]

وهذه الكلمة إنما تعظم على المؤمن ، وهى مسألة صعبة لا يمكن قبولها فلا يوجد مؤمن قادر على أن يقبل ادعاء خلق من خلق الله تعالى أن له سبحانه ولداً.

ومرة تكون العظمة من جهة أخرى ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ..﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

أى : عَظُم على المشركين ، وصَعُب على أنفسهم ، وشَقَّ عليهم ما تدعوهم إليه من أن الإله هو واحد أحد ، ولا سلطان إلا له سبحانه.

وهكذا ، إن كانت الكلمة مناقضة للإيمان فهى تكبر عند المؤمنين ، وإن كانت الكلمة تدعو الكافرين إلى الإيمان فهى تشق عليهم.

وهنا يأتى على لسان سيدنا نوح عليه السلام :

﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي [1] ..﴿٧١﴾ ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن سيدنا نوحاً - عليه السلام - مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً.

(١) المقام : مصدر ميمى بمعنى القيام واسم مكان القيام الحسى ، ويطلق مجازاً على المكانة والمنزلة الأدبية ، وقوله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ..﴿١٢٥﴾ ﴾ [البقرة] أى : مكان قيامه المسجد الحرام . وقوله : ﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الشعراء] أى : موطن فيه خيرات . وقوله : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الصافات] أى : منزلة معلومة . وقوله : ﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [يونس] أى : قيامى بالدعوة إلى الله وتذكيركم بآياته ، ومقام هنا مصدر ميمى .
والمقام (بالضم) مصدر ميمى من أقام الرباعى المزيد بالهمزة بمعنى الإقامة . واسم مكان واسم زمان . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : لا إقامة لكم فى أمن مع المجاهدين فارجعوا إلى بيوتكم .. [القاموس القويم - بتصرف] .

أى: أن حياته طالت كثيراً بين قومه ، كما أن تقريعه للكافرين جعله ثقيلاً عليهم.

أو أن: ﴿ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى .. (٧١) ﴾ [يونس]

تعنى: أنه حمَّلهم ما لا يطيقون ؛ لأن نوحاً - عليه السلام - أراد أن يُخرجهم عما ألفوا من عبادة الأصنام ، فشقَّ عليهم ذلك.

إذن: فمبدأ عبادة الإله الواحد يصعب عليهم.

أو أن الأصل فى الواعظ أو المبلِّغ أن يكون على مستوى القيام وهم قعود ، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يتكلم مع الحواريين وهو واقف ، والوقوف إشعار بأن مجهود الهدى يقع على سيدنا عيسى - عليه السلام - بينما يقعد الحواريون ليستمعوا له فى راحة.

إذن: فقول الحق سبحانه:

﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى .. (٧١) ﴾ [يونس]

أى: إن صعب عليكم ما أدعوكم اليه.

ويصح أن نأخذها من ناحية طول الوعظ والتكرار فى ألف سنة إلا خمسين عاماً ، أو أن مقامى كبر عليكم ، بمعنى: أننا انقسمنا إلى قسمين ؛ لأن المنهج الذى أدعو إليه لا يعجبكم ، وكنت أحب أن نكون قسماً واحداً.

وها هو ذا سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه ، وأرضاه - حين أحس أن الخلافة تقتضى أن يسمِّى من يَخْلُفُهُ من بعده ، قال له بعض الناس: لماذا لا تولى علينا عبد الله بن عمر ، فقال ابن الخطاب: بحسب

آل خطاب أن يُسأل منهم عن أمة محمد ﷺ رجل واحد. ثم أضاف: أعلم أنكم مَلَلْتُم حُكْمى ؛ لأنى شديد[1] عليكم.

إذن: فقد أحس نوح - عليه السلام - أنه انقسم هو وقومه إلى قسمين: هو قد أخذ جانب الله سبحانه الذى يدعو إلى عبادته، وهم أخذوا جانب الأصنام التى ألفوا عبادتها.

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح - عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .. (٧١) ﴾ [يونس]

أى: أننى لن أتنازل عن دعوتى، ونلحظ أنك إن قلت: «توكَّلتُ على الله» فقد يعنى هذا أنك قد تقول: وعلى فلان، وفلان، وفلان، لكنك إن قلت: ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .. (٧١) ﴾ [يونس]

فأنت قد قصرت توكُّلك على الله فقط.

وهكذا واجه نوح - عليه السلام - قومه، ورصيده فى ذلك هو الاعتماد والتوكل على من أرسله سبحانه، ويحاول أن يهديهم، لكنهم لم يستجيبوا، وقال لهم:

﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً .. (٧١) ﴾ [يونس]

ومعنى جمع الأمر: (أى: جمع شتات الآراء كلها فى رأى واحد)، أى: اتفقوا يا قوم على رأى واحد، وأنتم لن تضرونى. وجمع أمر الأجيال التى ظل سيدنا نوح - عليه السلام - يحاول هدايتها تحتاج إلى جهد ؛ لأن الجيل العقلى ينقسم إلى عشرين سنة.

---

(١) فسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يردها مُلْكاً وإنما أرادها للرأى والشورى ليضرب المثل للأجيال أن الأمر فى حياة الاستقرار للشورى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ .. (٣٨) ﴾ [الشورى] ولكنه أجاب جواباً ذكياً يحمل ما يريده، وما يراد منه.

وقد ظل سيدنا نوح - عليه السلام - يدعو القوم بعدد ما عاش فيهم ، أى : ألف سنة إلى خمسين ، فكم جيل - إذن - ظل نوح يعالجه ؟

إنها أجيال متعددة ، ومع ذلك لم يظفر إلا بقدر قليل من المؤمنين [1] بحمْل سفينة واحدة ، ومعهم الحيوانات أيضاً ، فضلاً عن أن ابنه خرج - أيضَاً - مع القوم الكافرين ، وناداه نوح - عليه السلام - ليركب معه وأن يؤمن ، فرفض ، وآثر أن يظل فى جانب الكفر ، بما فيه من فناء للقوم الكافرين ، وظن أنه قادر على أن يأوى إلى جبل يعصمه من الطوفان ، ولم ينظر ابن نوح إلى جندى آخر من جنود الله سبحانه يقف عقبة فى سبيل الوصول إلى الجبل ، وهو الموج.

إذن: فقول نوح عليه السلام:

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .. (٧١) ﴾ [يونس]

له رصيد إيمانى ضمنى ، فلا يوجد مجير على الله من خلق الله ؛ لأن الخلق كله - جماده ونباته وحيوانه - إنما ينصاع لأمر الله تعالى فى نصرة نوح - عليه السلام - ولن يتخلف شىء.

هكذا كان توكُّل نوح - عليه السلام - على الله تعالى بما فى هذا التوكل من الرصيد الإيمانى المتمثل فى :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٢٠) ﴾ [المائدة]

و﴿ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. (٢٨٤) ﴾ [البقرة]

---

(١) ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) ﴾ [هود] فعن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم ، وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفساً ، وقيل : كانوا عشرة . وقيل غير ذلك . وأيّاً كان عددهم فهو قليل جداً بالنسبة لمدة مكث نوح فيهم.

ولن يخرج شيء عن ملكه سبحانه.

ومن العجيب أنه لم يخرج عن مراد الله فى «كن» إلا الإنسان المختار ، لم يخرج بطبيعة تكوينه ، ولكن الحق سبحانه وهبه من عنده أن يكون مختاراً ، ولو لم يهبه الله تعالى أن يكون مختاراً لما استطاع أن يقف ، ولكان كل البشر من جنود الحق.

وقد قال نوح - عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ [1] .. ﴿٧١﴾ ﴾ [يونس]

والإنسان حين يهمه أمر من الأمور يظل متردداً بين خواطر شتى ، ويحاول أن يرى ميزات كل خاطر ، ويختار أفضلها ، وإذا ما جمع الإنسان خواطره كلها فى خاطر واحد ، فهذا يعنى استقراره على رأى واحد ، وجمع أمره عليه.

أما إذا كان الأمر متعدد الناس ، فكل واحد منهم له رأى ، فإن اجتمعوا وقرروا الاتفاق على رأى واحد ، فهذا جمعٌ للأمر.

والاتفاق على رأى واحد إنما يختلف باختلاف هويّة المجتمعين ، فإن كانوا أهل خير فهم ينزلون بالشر ، وإن كانوا أهل شر فهم يصعدون بالشر.

ومثال ذلك : أبناء يعقوب - عليه السلام - حينما حدث بينهم وبين أخيهم من الحسد لمكانة يوسف - عليه السلام - فقالوا:

---

(١) كلمة «شركاءكم» هنا منصوبة على أنها:
١- مفعول به لفعل مضمر تقديره : وادعوا شركاءكم.
٢- مفعول معه، أى : أجمعوا أمركم مع شركائكم.
٣- معطوف على أمركم، فتكون أجمعوا بمعنى العزم على فعل الشىء وكذلك جمع الشركاء.
وفى ضبط «شركاءكم» تفصيل انظره فى تفسير القرطبى (٤/ ٣٢٩٠).

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ[1] لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ..(٩)﴾[يوسف]

أى: أن الاقتراح بقتل يوسف هدفه ألا يلتفت وجه يعقوب وقلبه إلى أحد سواهم، وأتبعوا اقتراحهم بقتل يوسف باقتراح التوبة، فقالوا لبعضهم البعض:

﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ[2] (٩)﴾ [يوسف]

وهم قد ظنوا أن التوبة إن نفَّذوا القتل ستصبح مقبولة.

وهذا الشر البادى فى حديثهم لم يقبله بعضهم فى بادىء الأمر؛ لأنهم أبناء نبوّة، وما يزالون هم الأسباط[3]، لا يصعد فيهم الشر، بل ينزل، فقال واحدٌ منهم: لا تقتلوه بل ﴿اطْرَحُوهُ أَرْضًا..(٩)﴾ [يوسف]

أى: أنه خفَّف المسألة من القتل إلى الطرح أرضاً، وهذه أول درجة فى نزول الأخيار عن الشر الأول، وأيضاً تنازلوا عن الشر الثانى، وهو طرحه أرضاً؛ حتى لا يأكله حيوان مفترس، وجاء اقتراح: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ[4] إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)﴾ [يوسف]

ثم أجمعوا أمرهم أخيراً حتى نزل الشر مرة أخرى لاحتمال ورود النجاة.

---

(١) يخل: فعل مجزوم لأنه جواب الأمر، معناه: يخلص ويصفو. [تفسير القرطبى: (٤/ ٣٤٥٢)].

(٢) قوماً صالحين: أى: تائبين. وقيل: ﴿صالحين﴾ أى: يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل. [تفسير القرطبى (٤/ ٣٤٥٢)].

(٣) الأسباط فى بنى إسرائيل بمنزلة القبائل فى بنى إسماعيل، فالأسباط هم بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً. ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط. انظر تفسير ابن كثير (١/ ١٨٧).

(٤) غيابة، أى: مكان مظلم من الجب. والجب: البئر. أى: ألقوه فى موضع مظلم من الجب؛ حتى لا يلحقه نظر الناظرين. قيل: هو بئر بيت المقدس، وقيل: هو بالأردن، قاله وهب بن منبه. وسميت البئر جباً لأنها قطعت فى الأرض قطعاً. والسيارة: الجمع الذين يسيرون فى الطريق للسفر، وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاج إلى حمله إلى موضع بعيد؛ ويحصل المقصود، فإن من يلتقطه من السيارة يحمله إلى موضع بعيد، وكان هذا وجهاً فى التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم؛ فربما لا يأذن لهم أبوهم، وربما يطلع على قصدهم. [تفسير القرطبى: ٤/ ٣٤٥٣، ٣٤٥٤)].

إذن: فالأخيار حين يجتمعون على شر لا بد أن ينزل.

ومثال ذلك: رجل طيب رأى ابنه وهو يُضرَب من آخر، فيفكر للحظة في أن يضرب غريم ابنه بطلقة من (مسدس)، ثم يستبدل هذه الفكرة بفكرة الاكتفاء بضربه ضرباً مبرحاً بالعصا، ثم يتنازل عن ذلك بأن يفكر في صفعه صفعتين، ثم يتنازل عن فكرة الصفع ويفكر في توبيخه، ثم يتنازل عن فكرة التوبيخ ويكتفي بالشكوى لوالده، وهكذا ينزل الشر عند أهل الخير.

أما إن كان الرجل من أهل الشر، فهو يبدأ بفكرة الشكوى لوالد من ضرب ابنه، ثم يرفضها ليصعد شره إلى فكرة أن يصفعه هو، ثم لا ترضيه فكرة الصفع، فيفكر في أن يضربه ضرباً شديداً، ولا ترضيه هذه الفكرة، فيقول لنفسه: «سأطلق عليه الرصاص». وهكذا يتصاعد الشر من أهل الشر.

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا نوح عليه السلام:

﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ..(٧١) ﴾ [يونس]

أي: اجتمعوا والزموا رأياً واحداً تحرصون على تنفيذه أنتم وشركاؤكم، وهو ينصحهم رغم أنهم أعداؤه، وكان عليه أن يحرص على اختلافهم، ولكن لأنه واثق من توكله على ربه؛ فهو يعلم أنهم مهما فعلوا فلن يقدروا عليه، ولن ينتصروا على دعوته إلا بالإقدام على إهلاك أنفسهم.

أو أنه مثلما يقول العامة: «أعلى ما في خيولكم اركبوه» أي: أنه يهددهم، ولا يفعل ذلك إلا إذا كان له رصيد من قوة التوكل على الله تعالى.

ولا يكتفي بذلك بل يضيف:

﴿ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً [1] .. (٧١) ﴾ [يونس]

والغمة: منها الغمام، ومنها الإغماء، أي: فقد الوعي وسَتْر العقل، أي: أنه قال لهم: لا تتعبوا أنفسكم بتبادل الهمسات فيما بينكم، بل افعلوا ما يحلو لكم، ولا تحاولوا ستر ما سوف تفعلون.

إن عليكم أن تجتمعوا على رأى واحد أنتم وشركاؤكم الذين تعتمدون عليهم، وتعبدونهم، أو شركاؤكم فى الكفر، ولم يأبَهْ نوح - عليه السلام - بتقوية العصبية المضادة له؛ لأنه متوكل على الله فقط.

لذلك يقول: ﴿ ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) ﴾ [يونس]

أى: أنه يُحفِّزهم على الاجتماع على أمر واحد ومعهم شركاؤهم - سواء من الأصنام التى عبدوها أو من أقرانهم فى الكفر - وأن يصمموا على المضىّ فى تنفيذ ما اتفقوا عليه.

و«قضى» أى: حكم حكماً، لكن الحكم على شىء لا يعنى الاستمرار بحيث ينفذ، فقد يُقضَى على إنسان بحكم؛ ويوقف التنفيذ.

لكن قوله: ﴿اقْضُوا إِلَيَّ﴾ يعنى: أصدروا حكمكم وسيروا إلى تنفيذ ما قضيتم به.

ثم يقول: ﴿وَلا تُنظِرُونِ﴾ أى: لا تمهلونى فى تنفيذ ما حكمتم به علىَّ.

والمتأمل للآية الكريمة يجد فيها تحدياً كبيراً، فهو أولاً يطلب أن يجتمعوا على أمر واحد، هم وشركاؤهم، ثم لا يكون على هذا الأمر

(١) غُمَّة وغُمّ سواء، ومعناه: التغطية، من قولهم: غم الهلال إذا استتر، أى: ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً تتمكنون فيه مما شئتم، ليس كمن يخفى أمره فلا يقدر على ما يريد. وهذا دليل على ثقة نوح عليه السلام من ربه سبحانه، ونصره إياه على قومه الكافرين. [تفسير القرطبى: ٤/ ٣٢٩٠].

غُمَّةً [١] ، ثم اقضوا إلىَّ ما اتفقتم عليه من حكم ونفِّذوه ولا تؤجلوه ، فهل هناك تحدٍّ للخصم أكثر من ذلك ؟

لقد كانوا خصوماً معاندين ، ظل نوح - عليه السلام - يترفق إليهم ويتحنن لهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وصبر عليهم كل هذا الوقت ، ولا بد - إذن - من حدوث فاصل قوى ، ولهذا كان الترقِّى فى التحدى ، فدعاهم إلى جمع الأمر ومعهم الشركاء ، ثم بإصدار حكمهم عليه وعدم الإبطاء فى تنفيذه ، كان هذا هو التحدى الذى أخذ يترقى إلى أن وصل إلى قبول تنفيذ الحكم.

والنفسية العربية - على سبيل المثال - حين سامحت ، وصبرت ، وصفحت فى أمر لا علاقة له بمنهج الله ، بل بأمر يخص خلافاً على الأرض ، تجد الشاعر العربى يقول عن «بنى ذُهْل» الذين أتعبوا قوم الشاعر كثيراً ، ولكن قومه صفحوا عنهم ؛ يقول الشاعر [٢] :

صَفَحْنا عن بنى ذُهْلٍ   وقلنا : القومُ إخوانُ
عسى الأيامُ أنْ يرجعـ   ـنَ قوماً كالذى كانوا
فلما صَرَّحَ الشرُّ   فأمْسَى وهو عريانُ
ولم يبقَ سوى العدوا   ن دنَّاهم كما دانوا
مَشَيْنا مشْيةَ الليثِ   غَداً والليثُ غضبانُ

(١) غم الشىء يغمه - كنصر - غماً : أخفاه وغطاه وستره وغمه الأمر : كربه وأحزنه ، قال تعالى : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين (٨٨) ﴾ [الأنبياء] والغمة : التباس الأمر وعدم وضوحه ، قال تعالى : ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ..(٧١) ﴾ [يونس] وقال : ﴿ وظللنا عليهم الغمام ..(١٦٠) ﴾ [الأعراف]

(٢) هو شهل بن شيبان ويلقب بالفِنْد الزِّمَّانى ، توفى نحو ٧٠ ق هـ ، من بنى بكر بن وائل . شاعر جاهلى سمى الفند لعظم خلقته تشبيهاً بالقطعة من الجبل وهى الفند. (الأعلام للزركلى ٣/ ١٧٩).

بضـرب فيـه تـوهـينٌ   وتـخـضـيـعٌ[1] وإقـرانُ
وطعْـن كَفَـم الـزقّ[2]   غَـدَا والـزِّقُّ مَـلآنُ
وفـى الشـرّ نجاةٌ حيـ   ـن لا يُنجيـكَ إحسـانُ
وبعضُ الحِلْمِ عند الجهْـ   ـلِ للـذِّلَّـةِ إذعـانُ[3]

إذن: فالمناجزة بين نوح - عليه السلام - وقومه اقتضت التشديد، لعل بشريتهم تلين، ولعل جبروتهم يلين، ولعلهم يعلنون الإيمان بالله تعالى، ولكنهم لم يرتدعوا.

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح بعد ذلك:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ[4] فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ[5] أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ[6] ﴿٧٢﴾﴾

أى: إن توليتم عن دعوتى لعبادة الإله الحق، فأنا لا أدعوكم إلى مثيل لكم هو أنا، بل أدعوكم إلى من هو فوقى وفوقكم، فأنا لا أريد أن أستولى على السلطة الزمنية منكم، ولا أبحث عن جاه، فالجاه كله لله تعالى.

---

(١) التخضيع: تقطيع اللحم.
(٢) الزق: الإناء.
(٣) أورد هذه الأبيات أبو على القالى فى الأمالى (١/ ٣٠٩، ٣١٠)، وهى من بحر الهزج.
(٤) ﴿توليتم﴾: أعرضتم عما جئتكم به ﴿فما سألتكم من أجر﴾ أى: فليس ذلك لأنى سألتكم أجراً؛ فيثقل عليكم مكافأتى. [تفسير القرطبى (٤/ ٣٢٩١)].
(٥) إنْ - هنا - نافية بمعنى (ما) أى: ما أجرى إلا على الله - سبحانه وتعالى.
(٦) ﴿المسلمين﴾ أى: الموحدين لله تعالى. [تفسير القرطبى (٤/ ٣٢٩١)].